(تناوب حروف المعاني في تفسير الجلالين)
ـــ حرفا المعنى (حتى , وهل) نموذجاً ـــ

(Alternatives of the meanings in the interpretation of the Calalin) the character is meaningful and is amodel.

الباحث/ محمد عبدالله أحمد الحداد

ملخص البحث :

هدف البحث: تَتبُّع حرفا المعنى(حتى، وهل) في تفسير الجلالين، وتحديد المواضع التي قال الإمامان بتناوبهما فيها. ومن ثمَّ تأمُّل الحرف في موضعه كما هو، مع بيان تأثُّره بالسياق وتأثيره عليه، وتأكيد إبراز دور السياق وأهميّته في إنتاج المعنى وذلك بعد دراسة وتحليل قضية التناوب لهذين الحرفين من خلال فهم السياق والتأمل في مضامين الجمل وعلاقتها فيما بينها.

وتكوَّن البحث: من حرفي المعنى(حتى، وهل) في تفسير الجلالين. معتمداً على توصيف مادته ثمَّ تحليلها، بعد أن قام بتتبعها في التفسير الذي حصر دراسته فيها.

وأسفر البحث: على تأكيد المهام البيانية لحرفي المعنى (حتى، وهل) خصوصًا، وحروف المعاني عمومًا، وأنّ كل حرف وضع لدلالةٍ لا يمكن لغيره القيام بها. مع بيان علاقة السياق في إنتاج المعنى، وتحميل كل حرف محمول السياق الدلالي حسب وضعه، وما يحققه من الحقائق والدلالات التي تحقق مقاصد السياق التي ورد فيه هذا الحرف، إذ تأكد هذا في الآيات التي أخذ البحث بمنطوقها، واستكشف ما تؤول إليه من حقائق البيان ودقائقه، لذا يؤكدُّ البحث على دفع فكرة التناوب، وعدم القبول بها خاصة في الكتاب العزيز؛ لأّنه يناقض فكرة الإعجاز القرآني، ويردُّ القول بها.

الكلمات المفتاحية : التناوب، والدلالة، وحرف المعنى، والسياق.

Abstract:

The goal of research: Track the characteristics meaning and even in the interpretation of the malawin. And the setting of placements that the ambitions said by their arbitrator . and then the character is inserted as apriest. With a tyro me statemer the effect it. The stabilization of the context and its understanding of the meaning of the meaning of the meaning. After studying and analyzing the stimulus of those who crafts the letters of the craftsmen the understanding of the context and the worker in the embarrassed and their relationship between them.

And the search: of the craftsmen and even in the interpretation of the malawin. According to the tuition of its death and then analyze it after he tracked in the interpretation that has insisted in which it has been studied .

See the search: To adapt the charts of the characteristic of the meaning of the meaning and even in particular .the meanings of generally . and every letter put to a dancer can not be doing. With the context of contextual relationship in the production of meaning. And uploaded each portable context of the conduct of the roller as placing it and the acknowledged from the facts and the signs the conduct the context of the context the came to letter. As an exchange of the work in which the research took place . malouf discovering the facts and his minutes. So reaffirm the search for the payment of the rotation idea. And not to accept them special in the book dear because he contradicts the idea of the villages of the villages and tells it out.

keywords: Rotation , donation , sense of meaning ,and context.

ISSN : 2410-1818

المقدمة:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى...

أمّا بعد: إنّ الاهتمام بالقرآن العظيم لمن أعظم المنازل وأشرفها؛ لذا كان اختيار بحثي في أحد كتب تفسير الكتاب العزيز معنوناً إيَّاه:

بـ (تناوب حروف المعاني في تفسير الجلالين)ـ

حرفا المعنى (حتى , وهل) نموذجاً .

وقد نال هذا البحث قيمته من مقامات موضوعه القرآني الذي يبحث فيه، وأهميّته من القرآن الذي وقف دون بلوغ إمكانات لغته، وحقائق فكره ، ودقائق بيانه إمكانات البشر، وقصَرت عن ذلك أساليبهم، فأقرت لنفسها بالعجز، ولقرآن ربها بالجلال القائم والإعجاز الدائم مادامت السموات والأرض.

ولقد تتبع البحث المواضع التي قال الإمامان بالتناوب لحرفي المعنى(حتى، وهل): فبلغت(حتى) بمعنى(إلى) موضعان. و(هل) بمعنى(قد) موضعان. و(هل) بمعنى (ما) أحد عشر موضعاً.

وسيقوم البحث بدراسة موضوعه العلمي: (تناوب حروف المعاني في تفسير الجلالين) ــ حرفا المعنى (حتى , وهل) نموذجاًــ

وسيعمد البحث في دراسته إلى توصيف مادة بحثه ثمَّ تحليلها ، بعد أن يقوم بتتبع مادته من تفسير الجلالين الذي حصر البحث دراسته فيه.

أمّا الدراسات السابقة: حسب معرفتي لم يتم تناوله من قبل بل ولا قريب منه. إلا أنه قد تم دراسة حروف المعاني عموما. وفي مصادر علمية مختلفة، وبطرق علمية مغايرة عما قام به البحث. ويتميز البحث في موضوعه بأن جعل اختصاص دراسته حرفي المعني(حتى, وهل) وتناوبهما مع (إلى، وقد ، وما) .

وسيقوم البحث بدراسة قضيتي تناوب(حتى مع إلى)، و(هل مع قد, وما) وإيجاد الدلالة من خلال السياق وأهميته في إنتاج المعنى مضيفاً موضوعات. هي:

1/ نفي فكرة التناوب في حروف المعاني وأنّ كل حرف وضع لدلالة لا يمكن لغيره القيام بها.

2/سيحدد البحث علاقة السياق في إنتاج المعنى، وتحميل الحرفان(حتى, وهل) محمول السياق الدلالي حسب وضعهما.

3/ سيبيّن البحث مدى تأثير حرفي المعنى(حتى , وهل) في تغير دلالة الجمل وانتاج المعنى وتأثراهما في المعنى العام للجمل ، ثمَّ السياق.

ISSN : 2410-1818

وسيجيب البحث عن الأسئلة الآتية :

1/ ما المواضع التي قال الإمامان فيها بتناوب حرفي المعنى (حتى, وهل) في تفسيريهما؟

2/ ما دور السياق وأهميته في إنتاج المعنى ؟

3/ ما الدلالة المرجوة من وضع حرفي المعنى(حتى, وهل) في المواضع التي وضعت فيها؟

ويتكون البحث من ثلاثة مباحث :

الأول: حرف المعنى (حتى) وتناوبه مع حرف المعنى (إلى).

الثاني: حرف المعنى (هل) وتناوبه مع حرف المعنى (قد).

الثالث: حرف المعنى (هل) وتناوبه مع حرف المعنى (ما).

المبحث الأول: حرف المعنى (حتى) وتناوبه مع حرف المعنى (إلى).

فقد ذكر الإمامان المحلي والسيوطي أنّ(حتى) بمعنى(إلى) في موضعين قوله (تعالى): ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف :35].

وقوله (تعالى): ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر :5].

وموضع الشاهد في هاتين الآيتين:(لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ), و(حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)[1]، ووجه الاستشهاد هو توجيه الامامين حرف المعنى (حتى) بمعنى(إلى).

والذي يظهر أنّ النحاة قد تحدثوا عن(حتى) الجارة، وأنّ وقوعها بمعنى (إلى) مسلّم به.

فهذا ابن الحاجب يرى أنّه: يجوز أن تكون (حتى) بمعنى (إلى)، فنحو: سرت حتى تغيب الشمس، متعين لمعنى الانتهاء" [2].

[1] المحلي : جلال الدين محمد أحمد (ت: 864هـ ه) ، والسيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن(ت:911ه): تفسير الجلالين , ط1 , عام 1425 هـ . 2005م , دار الفكر ، بيروت . لبنان ، 239 , 599 .

[2] ينظر ابن الحاجب : جمال الدين بن عثمان بن عمر (ت: 646 ه)، الكافية في علم النحو، تح: صالح عبد العظيم الشاعر، ط1، 2010م، مكتبة الآداب – القاهرة,45/1 .

ISSN : 2410-1818

وقال ابن السراج(حتى): منتهى لابتداء الغاية بمنزلة (إلى) [3]. وقال المالقي إنّ(حتى) التي تدخل على المصادر لا يدخل ما بعدها فيما قبلها كقوله (تعالى):{ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ }[4]. مما يدل أن (حتى) عنده في المعنى مماثلة لـ(إلى) الدالة على الانتهاء وأنّ ما بعدها لا يدخل في حكم ما قبلها.

ولنأخذ في تعميق النظر للعلماء ومناقشة توجيهاتهم في قوله (تعالى):{سلامٌ هي حتّى مَطْلع الفَجْر } التي هي موضع الشاهد. قال الخليل:" معناه إلى مطلع الفجر"[5] . وهو قول الفراء [6]. وابن الأنباري[7] وأخذ بهذا القول بعض المفسرين كالبغوي[8] ، والخازن [9]،.. وغيرهما.

والذي يظهر أنّ لحرف المعنى(حتى) فروق مائزةٌ عن حرف المعنى(إلى) كما بيّن ذلك أبو البقاء قائلاً : وتفارق(حتَّى) (إلى) في أشياء. وهي: أنَّ ما بعد (حتَّى) يدخل في حكم ما قبلها كقولك: قام القوم حتَّى زيد فـــ(زيد) هنا دخل في القيام، ولا يلزم ذلك في قولك قام القوم إلى زيد. وأنَّ ما قبل (حتَّى) يجب أن يكون جمعاً كقولك: قام القوم حتَّى زيد ، ولو قلت: قام عمرو حتَّى زيد لم يجز وعلَّة ذلك أنَّ (حتَّى) تدلُّ على بلوغ العمل غايته ولفظ الواحد لا يتناول أكثر منه بحيث يجوز تخصيصه ببعضه. وأنَّ (إلى) تدخل على المضمر و(حتَّى) لا تدخل"[10].

---

[3] ابن السراج : أبو بكر محمد بن سهيل البغدادي [ت:316هـ] , الأصول في النحو , تحق :عبدالحسين الفتلي , الناشر : مؤسسة الرسالة , بيروت , ط الثالثة عام 1417هـ .1996م ، 424 .

[4] المالقي : أحمد بن عبد النور (ت: 702هـ), رصف المباني في شرح حروف المعاني , تحقيق :أحمد محمد الخراط , مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق ,184 .

[5] الخليل: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (ت:170هـ), الجمل في النحو, ط5، 1995م, تح: فخرالدين قباوة , 204 .

[6] ينظر الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد [ت : 207هـ] ، معاني القرآن، ج3، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي و محمد على نجار و عبدالفتاح إسماعيل شلبي ، ط2 ، دار المصرية للتأليف والترجمة مصر ,127/1 .

[7] ينظر: ابن الأنباري, عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد(ت: 577هـــ) ، أسرار العربية، تح: فخر صالح قدارة ، ط1،عام1995م، دار الجيل – بيروت , 240 .

[8] ينظر : البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد (ت : 510هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن ،ج8، تح : محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش،ط4، 1417 هـ – 1997 م دار طيبة للنشر والتوزيع ،491/8 .

[9] ينظر: الخازن: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم(ت: 741هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل،ج4، تحقيق: محمد على شاهين، سنة الطبع : 1415 هـ، دار الكتب العلمية . بيروت،453/4.

[10] ينظر: العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب ، 383/1 .

ISSN : 2410-1818

وفصّل ذلك السامرائي قائلاً: "حتى بمعنى الغاية هنا أي لغاية مطلع الفجر، إذن لم يبق شيء من الليل، مطلع الليل ليس من الليل، وإنما هو متصل به، وهو من الصبح فقال: (حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) يعني استغرق الليل كله، لم يبق فيه لحظة واحدة، ثم نلاحظ قوله : (سلام هي حتَّى مطلع الفجْر)" [11] . وزاد قائلاً :" فإنّ لفظها يبدو من (الحت)، ومعنى (الحت) الاستئصال والإزالة والخلوص إلى النهاية، أي الوصول إلى نهاية الأمر. والاختلاف الآخر بين استعمال(إلى) و(حتى) في الغاية ، أنّ حتى تفيد تقضّي الفعل قبلها شيئاً فشيئاً إلى الغاية و(إلى) ليست كذلك ، ولذا يجوز أن تقول:(كتبت إلى زيد)، ولا يجوز أن تقول:(كتبت حتى زيد) ؛ لأنّ الكتابة لا تنقضي شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى زيد"، والاختلاف الآخر بينها أنّ (حتى) لا يقابل بها ابتداء الغاية ، فلا يُقال: (سرت من البصرة حتى الكوفة) بل يُقال: إلى الكوفة. وذلك لضعف(حتى) في الغاية، فـ(إلى) أوسع وأعم في استعمال الغاية من(حتى)، ولذا تُستعمل في عموم الغايات بخلاف(حتى) [12]..

فيتأكد من هذا كله الفروق المائزة لـ(حتى) ، وأنها تحقق في الآيتين معاني التدرج، والاستقصاء، والاستغراق، والغاية.

ففي قوله (تعالى):{ **لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**} يفهم التدرج في سجنه، واستقصاء الزمن، واستغراقه لكل الوقت، حتى الحين وهي: آخر لحظة الخروج. سواء طالت المدة الزمنية أم قصرت .

وأمَّا قوله (تعالى) :{**سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ**} عبَّر الله أنّ الليلة سلام ، ويمتد سلامها ليس إلى مطلع الفجر أي حدّه. وهذا رأي من قال: إنّها بمعنى(إلى) وإنّما(حتى) مطلع الفجر، وما بعد(حتى) هنا داخل فيما قبلها، إذ يستمر السلام ليس إلى انتهاء الليل كما يُفهم من(إلى) بل يستمر حتى عند صلاة الفجر، وهنا يكون الاستقصاء والاستغراق والشمول لكل الوقت.

[11] السامرائي ، فاضل صالح , لمسات بيانية في نصوص من التنزيل , ط3, دار عمار،240 .
[12] ينظر: السامرائي ، فاضل صالح , معاني النحو, ج3, ط 2، شركة العاتك لصناعة الكتاب القاهرة ، 3 /31.

ISSN : 2410-1818

قال ابن عاشور: "جيء بحرف(حتى)لإدخال الغاية لبيان أن ليلة القدر تمتد بعد مطلع الفجر بحيث إن صلاة الفجر تعتبر واقعة في تلك الليلة لئلا يتوهم أن نهايتها كنهاية الفطر بآخر جزء من الليل، وهذا توسعة من الله في امتداد الليلة إلى ما بعد طلوع الفجر"[13].

ولعل هذا يظهر جليّاً من خلال فهم فرق الدلالة:

بين قول القائل:(أكلت السمكة إلى رأسها). و(أكلت السمكة حتى رأسها).
فالأولى: وضحت الحدّية والانتهاء لأكله، وأنّ الرأس غير داخل في المأكول.
أمّا الثانية: أظهرت الاستقصاء والشمول للمأكول, وأنّ الرأس داخل في المأكول.
ولذا يظهر جليّا دلالة وضع حرف المعنى (حتى):

في قوله (تعالى):﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾[يوسف :35].

فبحرف المعنى (حتى) يظهر شدة غيظهم ، وقوة مكرهم , وسواد قلوبهم التي تحمل قمة العداء لسيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ كل هذا يظهر من شدة حرصهم على استمرار سجنه إلى آخر لحظة {حتى حين} أي إلى آخر توقيت سجنه ، وهذا مالا يمكن فهمه من حرف المعنى(إلى).

وأمّا في قوله (تعالى):﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ القدر:5].

فبحرف المعنى (حتى) يظهر مدى لطف الله بعباده ، وعظم كرمه على خلقه، بأن مدى الزمن الفاضل المبارك. زمن ليلة القدر لما فيها من التجليات العظيمة، والأجور المضاعفة، إلى أن جعل طلوع الفجر جزءًا منها، وهذا مالا يكون لأي ليلة سوى ليلة القدر.(ﷻ) بهذا يخبرنا عن سعة رحمته، فمن أدرك ليلة القدر ونال من فضلها ، فزيادة الزمن يفسح المجال لزيادة نيل الفضل والأجر والعطاء، ومن لم يدرك ليلة القدر، فزيادة الزمن يفتح المجال لعودة العبد إلى الله فيدركها ولو في آخر لحظاتها، ولا يحرمها إلاّ محروم، وهذا مالا يفهم من حرف المعنى (إلى).إذاً فكيف يكون حرف المعنى (حتى) بمعنى (إلى). في الآيتين الآنفة الذكر.

[13] ابن عاشـــور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر(ت : 1393هـــــ) ، التحرير والتنوير،ج30، ط 1، 1420هـ/2000م، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان ،30 /410 .

ISSN : 2410-1818

المبحث الثاني: حرف المعنى (هل) وتناوبه مع حرف المعنى (قد).

ذكر المفسران أنّ (هل) بمعنى(قد) في آيتين هما:

قوله (تعالى):﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ [الانسان :1] .

وقوله (تعالى): ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾[الغاشية:1].

فموضع الشاهد{هل أتى على الإنسان}, و{ هَلْ أَتَاك حَدِيث الْغَاشِيَة} [14]، مما يدل على أنّ المفسرين ــ رحمهما الله ــ يقولان في معظم حروف المعاني بالتناوب، ويبدو تأثرهما الواضح بالقاعدة النحوية. التي قد بوب لها بعض النحاة : وهي أنّ (هل) بمعنى (قد) ويأتون بالآيتين [الانسان :1] , و [الغاشية :1] كدليل على ما ذهبوا إليه.

قال المرادي: إنّ (هل) بمعنى(قد) في آية [الانسان :1] وردَّ على من قال: إنّ(هل) للتقرير في الآية قائلاً:"هذا مردود لأنّه لم يثبت في(هل) معنى التقرير, فيحمل هذا عليه، ولا يليق بالآية، بل اللائق في(هل) فيها أن تكون للتحقيق، فهي أشبه بـ(قد) الداخلة على الماضي"[15]. وقال أبو عبيدة مجازها: (قد أتى على الإنسان) ، ليس باستفهام"[16]. وهذا رأي ابن يعيش"[17]. والهروي [18]، والعجيب أننا نجد النحاة يقولون: إنّ هذا رأي سيبويه حين قال:" وكذلك (هل) انما تكون بمنزلة (قد) ولكنّهم تركوا الألف إذ كانت (هل) لا تقع إلاّ في الاستفهام" [19]. ويقصد بترك الألف أي:(أهل). فقال ناظر الجيش:" كأنه يريد: أن أصل (هل) أن تكون بمعنى (قد) والاستفهام فيها بتقدير ألف الاستفهام كما كان كذلك في من ومتى وما الأصل: أمن وأمتى وأما ، ولما كثر استعمالها في الاستفهام حذفت الألف للعلم بمكانها"[20]. **إلا أنّ الذي يظهر من قول سيبويه: إنّ (هل) في الأصل قد تكون بمعنى(قد) وحرف المعنى (قد) منه ما يكون للتقرير ومنه ما يكون للتحقيق. و في الآيتين**[الانسان :1] ، [الغاشية :1] ،

---

14 ينظر: ينظر, المحلي والسيوطي ، تفسير الجلالين، ، 578 ،59.

15 المالقي ، رصف المباني ,407 .

16 أبو عبيدة : معمر بن المثنى(ت:213هـ)، مجاز القرآن,ج2،تح :محمد فواد، مكتبة الخانجي :القاهرة،2 /279

17 ابن يعيش : أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش(ت: 643هـ)، شرح المفصل للزمخشري،ج6، , ط1، 1422 هـ – 2001 م , دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،2 /422 .

18 الهروي :علي محمد النحوي (ت :415 هـ) : الأُزهية في علم الحروف , تحق عبد المعين الملّوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق ،208 .

19 سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت:180 هـ) : كتاب سيبويه ، ج3 , تح: عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي ، . القاهرة ، ط3 ، 1403 هـ .1983 م ، 92/1.

20 ناظر الجيش: محمد بن يوسف بن أحمد(ت: 778 هـ)، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد،ج11، تح: علي محمد فاخر وآخرون،ط1428،1 هـ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة – جمهورية مصر العربية، 448/9.

ISSN : 2410-1818

يظهر معنى التقرير و انتظار الإجابة من المخاطبين ومشاركتهم في الحوار أمر واضح ، والتقرير نوع من أنواع الاستفهام. وهو ما يؤكد أن حرف المعنى (هل) وإن فُهم منه معنى حرف المعنى (قد)؛ إلاّ أنّ أصل حرف المعنى (هل) لا يخرج عن الاستفهام . وهو ما عناه سيبويه بقوله في موضع آخر:"(هل) لا تقع إلاّ في الاستفهام"[21] ، مما يؤكد أنّ اصطحاب الدلالة الأصلية للحرف لا مفر منه ، وأصل دلالة حرف المعنى (هل) هو الاستفهام؛ **لذا نجد ابن هشام يفصل رأي سيبويه مبيّناً أنّ ما فهمه النحاة ونقلوه عنه لم يكن هو المراد من قوله فقال: "وَلَو كَانَ كَمَا زعم لم تدخل إِلَّا على الْفِعْل كـ(قد) وَثَبت فِي كتاب سِيبَوَيْهِ رَحمَه الله مَا نَقله عَنهُ ذكره فِي بَاب (أم) الْمُتَّصِلَة وَلَكِن فِيهِ أَيْضا مَا قد يُخَالِفهُ فَإِنَّهُ قَالَ فِي بَاب عدَّة مَا يكون عَلَيْهِ الْكَلم مَا نَصه وَ(هل) وَهِي للاستفهام وَلم يزدْ على ذَلِك"**[22]، مفندًا رأي مَن فهم مِن قول سيبويه أنّ (هل) بمعنى (قد) فقط ، تاركاً معناها الأصلي وهي دلالتها على الاستفهام.

أما أهل التفسير فقد ذهب بعضهم للقول بما قال به النحاة:

فهذا الطبري يقول: في قوله (تعالى):{هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ } قد أتى على الإنسان، و(هل) في هذا الموضع خبر لا جحد[23] ، ونقل الرازي الاتفاق على أنّ(هل) بمعنى(قد) قائلاً :" اتفقوا على أن(هل) هاهنا يقصد قوله(تعالى):{هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ } ، و:{هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ} بمعنى (قد)"[24]، ونقل الشوكاني أنّ جماعة من المفسرين يرون: أنّ(هل) هنا بمعنى(قد) في قوله (تعالى) :{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية } قال ، وبه قال قطرب ، أي : قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ، وهي القيامة؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها . وقيل: إن بقاء هل هنا على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجيب بما في خبره ، والتشويق إلى استماعه أولى"[25]. لكننا نجد من المفسرين من أخذ بأصل دلالة حرف المعنى(هل) واصطحاب هذا المعنى، وإن فهم معه دلالة حرف آخر إلا أن أصل الدلالة لكل حرف أمر لا مفر منه. فهذا ابن عاشور يقول: "الافتتاح بالاستفهام عن بلوغ خبر الغاشية مستعمل في التشويق إلى معرفة هذا الخبر لما يترتب عليه من الموعظة. وكون الاستفهام ب{هل} المفيدة معنى (قد)، فيه مزيد تشويق فهو

---

21 سيبويه ، الكتاب ،92/1.

22 ابن هشام, مغني اللبيب, ،460 .

23 الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير , (ت : 310هـ) , جامع البيان, ج24, تحقيق: أحمد محمد شاكر ,ط1، 1420 هـ – 2000 م، مؤسسة الرسالة، 24 /87.

24 الرازي , فخر الدين محمد بن عمر التميمي(ت: 606 هـ) , : مفاتيح الغيب , ج16 , ط 1, – 1421هـ – 2000 م ، دار الكتب العلمية – بيروت، 30 / 740.

25 الشوكاني ، محمد بن علي محمد , فتح القدير ,ج4، أعتنى به يوسف الغوش ، ط4، 1428هـــــ ,2007م ، دار المعرفة بيروت - لبنان ،. 4،1614 .

ISSN : 2410-1818

استفهام صوري يكنى به عن أهمية الخبر" [26]. وبهذا قال الدرويش"[27]. فإذا قلنا: إنها بمعنى (قد) وحسب فإن هناك دلالات ومعان قد تُسلبُ من النص، وتختفي ؛ ولذا مما تمّ استعراضه من آراء النحاة ، وأقوال المفسرين ، الذين يرون أنّ (هل) في الآيتين [الانسان :1] ، و[الغاشية :1] بمعنى(قد) فإنّ هذا لا يستقيم مع الكلام الفصيح ، فكيف بالأفصح كلام ربِّ العالمين , والحقيقة المستوحاة من التأمل فيها نجد أنّ(هل) محتفظة بأساس وضعها وهي الدلالة على الاستفهام، مع الاتساع لمعان أخرى حسب حال السياق؛ ولذا نجد ابن هشام يذكر رأي من قال إنّها بمعنى(قد) ثمّ بيَّن:"أنّ هناك من ذهب إلى أنّها لا تأتي بمعنى (قد) أصلاً ، وأيّد هذا الرأي قائلاً "هذا هو الصواب عندي"[28]. فنجد رفضه لهذا الرأي بيّن واضح. وهذا ما أكده السامرائي بقوله :"إنّها ليست بمعنى(قد) تماما بل هي لا تزال استفهاميّة فلا يصح أن نبدلها بـ(قد) وأن نبدل(قد) بها وضرب مثالا بقوله (تعالى) :{قَدْ سَمِعَ اللَّه قَول َ الَّتِي تُجَادِلُك } [المجادلة :1] فلا يصح أن نقول (هل سمع اللّه قول التي تجادلك) إن المقصود من أمثال هذا التعبير اشراك المخاطب في الأمر بنفسه ليقرر ويجيب في حين لوذكره بصورة الخبر لكان إخباراً من قبل المتكلّم نفسه" [29].

وقال ابن عاشور: "استفهام تقريري والاستفهام من أقسام الخطاب وهو هنا موجه إلى غير معين ومستعمل في تحقيق الأمر المقرر به على طريق الكناية لأن الاستفهام طلب الفهم، والتقرير يقتضي حصول العلم بما تقرر به إلى إيماء إلى استحقاق اللّه أن يعترف الإنسان له بالوحدانية في الربوبية إبطالاً لإشراك المشركين. وتقديم هذا الاستفهام لما فيه من تشويق إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام. فجملة {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ} تمهيد وتوطئة للجملة التي بعدها وهي {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ} [الانسان: 2] و{هل} حرف يفيد الاستفهام ومعنى التحقيق"[30].

---

[26] ابن عاشور، التحرير والتنوير ،261/30 .

[27] الدرويش: محي الدين أحمد مصطفى(ت:1403هـ)، إعراب القرآن وبيانه,ج10، دار الإرشاد سورية، 457/10.

[28] ابن هشام, مغني اللبيب, ،352 .

[29] السامرائي , معاني النحو، 246/4.

[30] ابن عاشور, التحرير والتنوير، 29 /345.

ISSN : 2410-1818

فلو تأملنا فرق الدلالة بين العبارتين:

(هل أتى). و(قد أتى) فإننا نجد الأولى: دالة على الاستفهام والتقرير واشتراك المخاطب، بينما الثانية: هي لمجرد بيان الخبر وتأكيده. مما يؤكد أنّ حرف المعنى (هل) وضع في موضعه اللائق به، وأنّ له مهام بلاغية يقتضيها السياق، فإن لم ندركها فهذا من قصور فهمنا لمراد الله (تعالى)، ومن ثَمَّ فإن لكل حرف ما يميزه عن الآخر وأنَّ القيمة البيانية للحرف تؤكد عدم تناوبه مع أي حرف آخر.

المبحث الثالث: حرف المعنى (هل) وتناوبه مع حرف المعنى (ما).

لقد قال الإمامان المحلي والسيوطي إنّ(هل) بمعنى(ما) في إحدى عشرة آية، وهي:

قوله (تعالى) :﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [البقرة :210].

وقوله (تعالى) : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران:154]

وقوله (تعالى) :﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الاعراف :147]

وقوله (تعالى) :﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [يونس :52].

وقوله (تعالى): ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف:64] .

وقوله (تعالى): ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل:33]

ISSN : 2410-1818

وقوله (تعالى): ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾[الاسراء :93].

وقوله(تعالى):﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل :90].

وقوله (تعالى) :﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[سبأ :33].

وقوله (تعالى):﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الزخرف :66]

وقوله (تعالى) :﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن:60].

إذاً فموضع الشاهد في الآيات السابقة :هو في" (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ)، و(هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)، و(هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُون) ، و(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)، و(قَالَ هَلْ آمَنَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ)، و(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ) ، و(هَلْ كُنْت إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) ، و" هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ، و (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) و "هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، و(هل يَنْتَظِرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيهِمْ) و(هَلْ جَزَاء الْإِحْسَان)" [31]..

ووجه الاستشهاد هو قول المحلي والسيوطي إنّ(هل) في الآيات الآنفة الذكر بمعنى(ما)، وهما بهذا القول ينحيان منحى بعض النحاة ،القائلين بالتناوب في حروف المعاني.

وقبل أن نقول بنيابة(ما) مكان(هل). يلزم معرفة دلالة كل حرف ومعناه ، ومدى تأثره وتأتيره على الفعل ، ثمَّ على الجملة ، ثُمَّ دلالة الحرف في السياق.

[31] ينظر, المحلي والسيوطي ، تفسير الجلالين، ص 32، 70 ، 168، 214 ، 243، 270 ، 291، 385، 432، 494، 53.

ISSN : 2410-1818

فالحرف(ما) حرف يدل على النفي في حال حدوث الفعل. قال سيبويه :"ما" نفي لقولك :(هو يفعل) ،أي في حال الفعل فإن نفيه (مايفعل) [32]، وبين النحاة أنّ(ما) تنفي الجمل الاسمية والفعلية فهي أوسع استعمالاً من (ليس) المختصة بنفي الجمل الاسمية. إذ قال ابن هشام: "إذا دخلت(ما) على الفعل المضارع خلصته للحال عند الجمهور[33]، وقال الرضي بالنفي ورد نفيها للحال وجعلها لمطلق النفي. فقال: وعند النحاة أن (ما) و(ليس)، كلاهما لنفي الحال، والحق، أنهما لمطلق النفي[34]، والحرف أصلاً جيء به اختصاراً ونائباً عن الفعل، وهذا يدل على أنّ كل حرف ينوب عن فعل ، ويلازمه حتى وإن تغير معناه حسب السياق .. قال ابن يعيش : " حذفُ الحروف ممّا يَأْباه القياسُ ؛ لأن الحروف إنّما جيء بها اختصارًا ونائبةٌ عن الأفعال، فَ "ما" النافيةُ نائبة عن "أَنْفِي"، وهمزةُ الاستفهام نائبةٌ عن "استفهِمُ"، وحروفُ العطف عن "أَعْطِفُ"، وحروفُ النداء نائبة عن "أُنادِي[35]" وبين أبو البقاء العكبري أنّ معنى الحرف مرتبط بغيره أي يكون معناه حسب السياق مع الاحتفاظ بمعناه الأساس إذ قال :" الإِجماع منعقدٌ على أنَّ معنى الحرف في غيرهِ لا في نَفسِهِ، ووجب أن يُقتَصَر به على إثباتِ المَعنى في غيره"[36]ومع هذا نجد من يقول إنّ(هل) بمعنى(ما) كالهروي[37]، والفرّاء[38]و الزجاجي [39]. وابن مالك[40].

أمّا حرف المعنى (هل) فهو حرف استفهام يدخل على الأسماء والأفعال، لطلب التصديق الموجب، لا غير، نحو: هل قام زيد؟ ، ومن معانيه ما قد يراد به الاستفهام لقصد النفي, نحو: هل يقدر على هذا غيري؟، أي: ما يقدر"[41] ،

---

[32] سيبويه، الكتاب، 1 /460.

[33] ابن هشام ، مغني اللبيب ، 4 /67.

[34] الرضي ،شرحه على الكافية ، 185/2 .

[35] ابن يعيش : شرح المفصل ، 1 /362.

[36] العكبري: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت: 616هـ)، التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين، تح : عبد الرحمن العثيمين،ط1، ، 1406هـ – 1986م، دار الغرب الإسلامي،243 .

[37] الهروي , الأزهية في علم الحروف،209.

[38] الفراء، معاني القرآن, 1 / 248.

[39] ينظر: الزجاجي : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ، حروف المعاني ،تح: علي توفيق الحمد , ط1،عام 1984م، مؤسسة الرسالة – بيروت، 2.

[40] ينظر: ابن مالك ، شرح التسهيل ، 109/4.

[41] ينظر: المرادي ، الجنى الداني ، 57.

ISSN : 2410-1818

ويرى العكبري أنّ ملازمتها للاستفهام مع ظهور معان أخرى حسب السياق هو الأصل إذ قال:" الاستفهامُ طلبُ الإفهام. والإفهام تحصيلُ الفَهْم والاستفهام والاستعلام والاستخبار بمعنىً واحدٍ وقد يكونُ الاستفهامُ لفظاً، وهو في المعنى توبيخٌ أو تقريرٌ فالتوبيخُ كقوله (تعالى): (كَيْفَ تَكْفُرونَ باللّهِ) والتقريرُ كقوله :(وما تِلْكَ بيمينكَ يا مُوسَى) فقرَّره ليقول(هيَ عَصَايَ)" [42].

وقال الطبري في :"(هَلْ جَزَاءُ الإحْسَانِ إلا الإحْسَانُ هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام إلا الجنة" [43].وبهذا قال الرازي[44]، وأبو حيان [45]. مما يؤكد أنها عندهم دالة على الاستفهام وليست للنفي بمعنى (ما). وخالفهم ابن عادل فهي عنده بمعنى(ما): أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة [46].

إنّ النظر في نصوص الآيات يتبيّن أنّ هناك فرقاً بين(هل) الاستفهامية، و(ما) النافية، وأنّ كل حرف يحتفظ بأصوله الدلالية التي تميزه عن غيره من الحروف ؟!!، وإن تغيرت دلالته حسب مقتضيات السياق. وهذا ما عناه حسن عباس بقوله : "عندما ينكشف معنى الحرف الأصلي بسبب وضعه في جملة، ويظهر المراد منه، فإن ذلك المعنى ينصب على ما بعد الحرف، ويتركز فيه؛ سواء أكان ما بعد الحرف الأصلي مفردًا أم جملة ، إذا قلنا: ما جاء أحد ، هل غاب أحد؟ فإن النفي والاستفهام ينصبّان على كل مضمون الجملة التي بعده... وهكذا... [47].

وقال السامرائي: " الذي يبدو راجحاً أنّ معنى النفي المستفاد من(هل) لا يطابق النفي بحرف النفي بل المعنى مختلف من **جهتين:** الأولى: أنّ النفي بـ"هل" ليس نفياً محضاً بل هواستفهام أُشرب معنى النفي فقد يكون مع النفي تعجب أواستنكار أوغير ذلك من المعاني. فقوله (تعالى):{قُل هَل تَرَبَّصُونَ بنا إلاَّ إحدى الحسنيين } [التوبة:52] يختلف عن قولنا: (ماتربصون بنا إلّاإحدى الحسنيين). ليست نفياً خالصاً ، فإن فيها من التحدّي والاستخفاف مالايؤديه النفي المحض . إذاً النفي بطريقة الاستفهام ليس

---

[42] العكبري ،اللباب في علل البناء والإعراب ، 130/2.

[43] الطبري ،الجامع ، 68/22 .

[44] ينظر: الرازي ، مفاتيح الغيب ، 29 /377.

[45] ينظر: ابو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي (ت: 745 هـ), البحر المحيط ، تح: صدقي محمد جميل, دار الفكر ــ بيروت، 10 / 70.

[46] ينظر : البغوي ، عالم التنزيل ، 7 /45.

[47] عباس حسن (ت : 1398هـ), النحو الوافي, ج4 , ط 15، دار المعارف ,70/1 .

ISSN : 2410-1818

نفياً محضاً بل يحمل معان أخرى . يدل عليه السياق , ولا يؤديه النفي المحض. والأخرى:أنّ النفي الصريح إنّما هو إقرارمِن المخبر فإذا قال (ماجزاء الإحسان إلاّ الاحسان) كان هذا إخباراً من المتكلم . أمّاإذا قال ذلك بطريقة الاستفهام، فإن المقصود إشراك المخاطب في الأمر , فهو يريد الجواب منه . وإذاقال : (هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان) كان المخاطب مدعوًّا لأن يجيب ، وسيكون جوابه : لا ، ماجزاء الإحسان إلاّ الإحسان[48]، ومن ثَمَّ فإنّ جميع الآيات التي قال الإمامان إنّ(ما) تنوب عن(هل) مجافٍ للدقة ، وأنّ حرف المعنى (هل) وُضع للاستفهام ، ولا مجال للنفي ، إلاّ أنّه يحمل دلالات أخرى يفهم من خلال التأمل في الآيات والسياق التي وضعت فيه كما يأتي:

فالاستفهام المتضمن التحذير الشديد, والتهديد العظيم.

يُفهم من قوله(تعال):﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾[البقرة :210]

وقوله (تعالى): ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[النحل:33] ،

وقوله (تعالى):﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف :66] ،

والاستفهام ، المتضمن الاستنكار ، والتوبيخ والتهديد:

يُفهم من قوله (تعالى) {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الاعراف :147]

وقوله (تعالى) : {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } [يونس :52]

وقوله (تعالى) : {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النمل :90]

وقوله (تعالى): {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ :33]

والاستفهام المتضمن الاعتراف، والإقرار بالجزاء المقابل للعمل إن خيراً فخيراً ، وإن شراً فشراً.

يُفهم من قوله (تعالى):{هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن:60]

والاستفهام المتضمن العتاب، والتحسر، والحزن ، والألم ، وتذكيرهم بصنيعهم .

يُفهم من قوله (تعالى):{ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ}[يوسف:64]

[48] ينظر: السامرائي ، معاني النحو ، 4 /618 .

ISSN : 2410-1818

والاستفهام المتضمن معنى النفي، المقرون بالتأكيد.

يُفهم من قوله (تعالى) :{ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ}[آل عمران :154]

وقوله (تعالى):{هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}[الإسراء :93]

إذن يظهر من كل ما سبق أنّه لا يمكن أن تبدل كلمة في سياقها بأخرى؛ أو تكون بمعنى كلمة أخرى؛ لأنّ الاستعمال القرآني للمفردة معجز في دقة التعبير عن المعنى المراد دون زيادة أو نقصان وعلى نحو متفرد. وبذا يظهر مدى أهمية حرف المعنى (هل) في التركيب القرآني، فلا يمكن أن يوضع بتركيب دون مناسبة دلالية بينهما، فتعددت دلالاته وتنوعت حسب السياق، فأنت ترى أن النفي بطريق الاستفهام ليس نفيا محضا، بل هو مقرون بمعان أخرى تفهم من خلال السياق كالتحذير, والتهديد, والاستنكار، والتوبيخ ،والاعتراف، والإقرار, والعتاب، والتحسر، وغيرها من الدلالات التي توحي بالتفاعل بين المُخَاطِب والمُخَاطَب واستثارة مشاعره وتهيجها، ومشاركة المخاطب في الإجابة وإصدار الحكم عن المستفهم عنه. وهذا ما لا يمكن أن يؤديه حرف المعنى (ما) الدال على النفي المحض الخالي من تنوع الدلالات سوى نفي الخبر وتأكيده.

وتناوب الحروف من المسائل التي تكلم فيها علماء النحو واللغة قديمًا وحديثًا، فالمدرسة البصرية ترى أن لكل حرف معنى أصليًّا خاصًا به كـ(الباء) للإلصاق ، و(عن) للتجاوز، و(في) للظرفية، و(من) للابتداء...وهكذا، فإن أدَّى هذا الحرف غير معناه الأصلي فهو إما بتضمين الفعل أو العامل معنى فعل أو عامل آخر يتعدى بهذا الحرف.

وهذا ما عناه سيبويه بقوله:" وباء الجر إنما هي للإلزاق والاختلاط، وذلك قولك : خرجت بزيد، ودخلت به، وضربته بالسوط، فما اتسع من هذا الكلام فهذا أصله"[49].

فهو يجيز أن يخرج الحرف عن معناه الأصلي اتساعاً، لكنه يلجأ إلى التأويل لرده إلى معناه الأول وهذا دأب المدرسة البصرية. " إن المدرسة البصرية لا تجيز التصرف في الحروف قياساً، فكما أن حروف النصب والجزم لا تنوب بعضها عن بعض فكذلك حروف الجر"[50]. والتجوز في الفعل أسهل من التصرف في الحرف؛ لأن الحروف بابها لا يتصرف فيه"[51]. قال السيوطي :" إن مَذْهَب البصريين

[49] سيبويه ، الكتاب ,217/4.
[50] ينظر: ابن هشام، مغني اللبيب, 150.
[51] ينظر : المصدر السابق ، 861.

ISSN : 2410-1818

عدم القول بتناوب الحروف بَعْضهَا عَن بعض. وَمَا أوهم ذَلِك فإمَّا مؤول تَأْوِيلا يقبله اللَّفْظ أَو على تضمين الْفِعْل معنى فعل يتعدى بذلك الْحَرْف"[52]. ومع هذا نجد من البصريين من يقول بالتناوب. كالمبرد في توجيهه قوله تعالى:﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[الرعد ، 11] قال أي بأمر الله " [53].

أمّا أصحاب المدرسة الكوفية يرون أن التناوب بين الحروف أمر مسلم به، وأن للحرف أكثر من معنى حقيقي. ومن التعسف قصره على معنى واحد ، ولهذا نجد من يقول بالتناوب من غير قيد أو شرط. كالهروي الذي عقد باباً أسماه" دخول حروف الخفض بعضها مكان بعض"[54]. وابن قتيبة في قوله تعالى:﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه:71] قال:" أي على جذوع النخل. و"على" مكان "عن" يقال " رضيت عليك " أي "عنك ""[55].

إلاّ أنّ ابن السراج جعل التقارب بين معاني الحروف سببا لتناوبها ، وتباعد المعاني يمنع ذلك فقال:" واعلم أن العرب قد تتسع فيها فيقيم بعضها مقام بعض ، إذا تقاربت المعاني ، فمن ذلك الباء ، تقول : فلان بمكة وفي مكة ، وإنما جاز معاً؛ لأنك إذا قلت فلان بموضع كذا وكذا ، فقد خبرت عن اتصاله والتصاقه بذلك الموضع ، وإذا قلت في موضع كذا، فقد خبرت بـ (في) عن احتوائه إياه ، وإحاطته به ، فإذا تقارب الحرفان، فإن هذا التقارب يصلح للمعاقبة "[56].

والذي يؤكد عليه البحث وما ينبغي القول به أن يجنب كتاب الله (تعالى) القول بالتناوب ؛ لأنّ ذلك قد يؤدي إلى ضعف تقديس الكتاب العزيز وقد حصل ؛ لأنّه ما وُضع حرف إلاّ لدلالة مرجوة منه ، ومغزى لا يمكن أن يُفهم إلاّ من خلال الحرف الموضوع في مكانه اللائق به ، ولذا نجد من يرفض القول بالتناوب في القرآن الكريم. كابن القيم إذ قال:" وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريق...، فيشربون الفعل المتعدي به معناه هذه طريقة إمام

---

[52] السيوطي, جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر[ت:911هـ] , همع الهو امع في شرح جمع الجوامع, ج2,المكتبة التوفيقية , مكان النشر : مصر, 448.

[53] المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر(ت:285هـ) ، المقتضب، ج4، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، ، عالم الكتب ـبيروت ، 2 / 319.

[54] الهروي, الأُزهية في علم الحروف ، 37.

[55] ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، أدب الكاتب،ج1، تح: محمد محيى الدين عبدالحميد، ط4،1963م، المكتبة التجارية – مصر ،507

[56] ابن السراج، الأصول في النحو ، 1 /414.

ISSN : 2410-1818

الصناعة سيبويه وطريقة حذاق أصحابه، يضمنون الفعل معنى الفعل، لا يقيمون الحرف مقام الحرف، وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار، تستدعي فطنة ولطافة في الذهن"[57].

وأكدَّ ذلك السامرائي قائلاً :" والحق أن الأصل في حروف الجر أن لا ينوب بعضها عن بعض، بل الأصل أن لكل حرف معناه واستعماله" [58].

إذا فالتسليم بتناوب الحروف بعضها بعضاً من غير قيد أو شرط قد يؤدِّي إلى اختلاف الدلالات ويفقد الجمل مهام بلاغية يُرادُ فهمها من خلال السياق خاصةً كتاب الله (تعالى) ؛لأنّ الحرف ما وضع إلاّ في موضعه اللائق به، وأنّ له مهام بلاغية يقتضيها السياق، فإن لم ندركها فهذا من قصور فهمنا لمراد الله تعالى، ومن ثَمَّ فإن لكل حرف ما يميزه عن الآخر وأنَّ القيمة البيانية للحرف تؤكد عدم تناوبه مع أي حرف آخر.

خاتمة البحث ونتائجه:

إنّ فكرة التناوب التي أخذ بها علماء التفسير عموماً، والمفسران المحلي والسيوطي في تفسيرهما تخصيصاً هو ثمرة التأثير النحوي.والنظر في حرفي المعنى(حتى، وهل) والقول بتناوبهما؛ يُعدُّ خلاف واقع الحرف في الأداء القرآني، ومهامه الجليلة في البيان والإعجاز؛ إذ إن لكل حرف معنى من المهام البيانية ، والدلالات المائزة ، والأصول المعنوية الدقيقة ، ما يميزه عن غيره ، ولا يمكن أن ينوب عنه أي حرف آخر. والقول بتناوب الحروف بعضها بعضاً يمكن القبول به في أي نص غير القرآن؛ لأنّ قبول ذلك في القرآن قد يؤدي إلى رد فكرة الإعجاز القرآني.

ومن ثمَّ فإنّ النظر في فهم التناوب قد يتسع لصور عدة، منها:

أولاً : أن يقصد العلماء بالتناوب ، حلول حرف ونيابته لحرف آخر؛ فتختفي أصوله المعنوية ، كما أن نيابة حرف لآخر لا يفضي إلى تغير في المعنى ، وإلى عدم تفريق فيها , فهذا سيفتح باباً لا يغلق من التداخل والتماهي بين حروف المعاني ، ومعطياتها المعنوية ، وعندها تختفي قيمة الحرف الدلالية ، ويختفي تميزه عن بقية الحروف في معطاه الدلالي ؛ لأنّ غيره من الحروف تغني عنه في مواضع البيان والأداء اللغوي .

---

[57] ابن قيم الجوزية , ابو عبدالله محمد بن ابي بكر بن ايوب [ت:751هـ] , بدائع الفوائد, ج2, تح علي بن محمد العمراني , دار عالم الفوائد ، 2 /31.

[58] السامرائي ، معاني النحو، 3 /7.

ISSN : 2410-1818

ثانياً : أن يكون مراد العلماء من التناوب ، هو تأكيدهم على اتساع دلالة الحرف الواحد ، وإمكاناته في تضمين حرف آخر مع بقاء أصوله الدلالية فيه ، وهذا الاتساع في المعنى لا يحققه الحرف في ذاته، بل تحققه مقاصد السياق ؛ ومن ثَمَّ لا يخرج الحرف عن أصوله بل يحتفظ بها مع محمول السياق الدلالي الذي يفيده، وهذا الفهم لا يجافي الحقيقة البيانية في الأداء اللغوي ، بل يؤكد قوة البيان للحرف، ثمَّ الأثر الدقيق والكبير لمقاصد السياق البيانية ، وهذه الفكرة أكدها سيبويه (عليه رحمة الله) ؛ إذ قال : "وباء الجر إنّما هي للإلزاق والاختلاط , ...ثم قال:" فما اتسع من هذا الكلام فهذا أصله"[59].أي: أنّ كل حرف يبقى متصلاً بأصل معناه ,وإن توسعت الدلالة, إذا فكيف يأتي حرف مقام حرف , فهذا يعني اختلاف في تركيب الجملة وتغيير للمعنى.

ثالثاً: يجب أن ندرك خطورة القول بالتناوب في الفهم الأوّل ، ونحن نتحدث عن البيان القرآني ، ودلائل إعجازه ، إذ القول بالتناوب أو حلول حرفٍ وقيامه بمهامه المعنوية دون القول بفارق الدلالة بينهما ، وتميز حرف عن حرف ، يناقض تماماً فكرة الإعجاز القرآني ، ويرد القول بها.

إن من المؤكد أنّ فكرة التناوب لم تكن محل نقاش بين العلماء ، عند تنزل القرآن الكريم؛ لأنه لم تكن قد قعدت القواعد ، وألفت كتب النحو في ذلك ، بل كانت أساليب البيان القرآني تدرك بالذائقة العربية السليمة ، وتستعذب حينها ، مدركين عند تلقيهم لهذه الأساليب أنّ لكل حرف من حروف القرآن الكريم معنى تؤديه ، فتعمل بذلك كل كلمة عملها في نفوسهم ، وتؤثر فيهم ؛ ومن ثم نجد أن فكرة التناوب ، لم تظهر إلاّ بعد ظهور المدارس النحوية ، وما حدث بينهم من الاختلاف في كثير من المسائل.

ولقد تأكد للبحث ما لسياق من أثر كبير في توجيه الأداء اللغوي القرآني في عمومه ، وحرفي المعنى (حتى, وهل) تخصيصاً، وهذا التوجيه السياقي للدلالة هو الذي يبرز قيمة الحرف في سياقه، وأثره في بيان المعنى الذي يستهدف تحقيقه السياق ودوره في تحقيقه ، كما أن السياق هو الذي يوسع من دلالة الحرف مع احتفاظه بما يميزه عن بقية الحروف.

[59] سيبويه ، الكتاب , 4 /217 .

ISSN : 2410-1818

فهارس المصادر:

1. ابن الأنباري, عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد ، أسرار العربية، تح: فخر صالح قدارة ، ط1 ،عام1995م، دار الجيل – بيروت .
2. ابن الحاجب : جمال الدين بن عثمان بن عمر، الكافية في علم النحو، تح: صالح عبد العظيم الشاعر، ط1، 2010م، مكتبة الآداب – القاهرة .
3. أبوحيان: محمد بن يوسف الأندلسي ,البحر المحيط ، تح: صدقي محمد جميل, دار الفكر ــ بيروت.
4. الخليل: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي, الجمل في النحو, ط5، 1995م, تح: فخرالدين قباوة .
5. الدرويش: محي الدين أحمد مصطفى، إعراب القرآن وبيانه, ج10 ، دار الإرشاد ـ سورية.
6. الرازي , فخر الدين محمد بن عمر التميمي, : مفاتيح الغيب , ج16 , ط 1, - 1421هـ - 2000 م ، دار الكتب العلمية - بيروت.
7. الرضي : رضي الدين محمد بن الحسن , شرح الرضي على الكافية , منشورات جامعة قاريونس بنغازي , ط2، 1996 م .
8. الزجاجي : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ، حروف المعاني ، تح: علي توفيق الحمد , ط1 ،عام 1984م، مؤسسة الرسالة - بيروت.
9. السامرائي ، فاضل صالح , لمسات بيانية في نصوص من التنزيل , ط3, دار عمار .
10. السامرائي ، فاضل صالح , معاني النحو , ج3, ط 2 ، شركة العاتك لصناعة الكتاب القاهرة .
11. ابن السراج , ابو بكر محمد بن سهيل البغدادي, الأصول في النحو , تحق :عبدالحسين الفتلي , الناشر : مؤسسة الرسالة , بيروت , ط3,عام 1417هـ -1996م .
12. سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، الكتاب ، ج3 , تح: عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي ، . القاهرة ، ط3 ، 1403 هـ -1983م.
13. السيوطي, جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر, همع الهو امع في شرح جمع الجوامع, ج2,المكتبة التوفيقية , مكان النشر : مصر.

ISSN : 2410-1818

14. الشوكاني ، محمد بن علي محمد , فتح القدير ,ج4، أعتنى به يوسف الغوش ، ط4، 1428هـ ,2007م ، دار المعرفة بيروت ـ لبنان .
15. الطبري: ابو جعفر محمد بن جرير, , جامع البيان, ج24, تح: أحمد محمد شاكر,ط1، مؤسسة الرسالة.
16. ابن عاشور: محمد الطاهر ، التحرير والتنوير، ج30، ط 1، 2000م، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان.
17. عباس حسن ,النحو الوافي, ج4 , ط 15، دار المعارف.
18. أبو عبيدة : معمر بن المثنى ، مجاز القرآن,ج2، تح : محمد فواد ، مكتبة الخانجى: القاهرة.
19. العكبري : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله، اللباب في علل البناء والإعراب، ج2، تحقيق: عبد الإله النبهان ، دار الفكر – دمشق ، لط1بعة الأولى، 1416هـ 1995م .
20. العكبري: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله ، التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين، تح : عبد الرحمن العثيمين،ط1 ، 1406هـ - 1986م، دار الغرب الإسلامي .
21. الفراء: أبو زكريا يحيى بن زياد ، معاني القرآن، ج3، تح: أحمد يوسف نجاتي و محمد على نجار و عبدالفتاح إسماعيل شلبي ، ط2 ، دار المصرية للتأليف والترجمة مصر.
22. ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، أدب الكاتب، ج1، تح: محمد محيى الدين عبدالحميد، ط4،1963م، المكتبة التجارية - مصر .
23. ابن قيم الجوزية , ابو عبدالله محمد بن ابي بكر, بدائع الفوائد, ج2, تح علي محمد العمراني , دار عالم الفوائد .
24. المالقي , احمد بن عبد النور , رصف المباني في شرح حروف المعاني , تح :احمد محمد الخراط , مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق .
25. ابن مالك: جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ,شرح تسهيل الفوائد،ج4، تح: عبد الرحمن السيد، محمد بدوي المختون، ط1(1410هـ - 1990م)،هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

ISSN : 2410-1818

26. المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد ، المقتضب، ج4، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، ، عالم الكتب ــ بيروت.

27. المحلي، جلال الدين محمد أحمد، والسيوطي، جلال الدين عبدالرحمن, تفسير الجلالين , ط1 , عام 1425 هـ - 2005م , دار الفكر ، بيروت ـ لبنان .

28. ناظر الجيش: محمد بن يوسف بن أحمد، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، ج11، تح: علي محمد فاخر وآخرون، ط142,8 هـ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة -جمهورية مصر.

29. الهروي : علي محمد النحوي (ت :415 هـ) : الأُزهية في علم الحروف , تحق عبد المعين الملّوحي , مطبوعات مجمع اللغة العربية ــ دمشق .

30. ابن هشام: أبو محمد عبدالله بن يوسف, مغني اللبيب عن كتب الأعاريب , تح: عبداللطيف الخطيب , الكويت التراث العربي.

31. ابن يعيش : أبو البقاء موفق الدين يعيش بن علي ، شرح المفصل، ج6، , ط1، 1422 هـ - 2001 م , دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.